حيدر يَكتب... وأنا أُسجن!

حمدي أبو خليل

ـ «أنت متَّهم بالترويج لازدراء الأديان!»

هكذا قال المحقِّق. وهنا بالضبط تأكدتُ أنّ المسألة جدٌّ، وأنّي مقْبلٌ على كارثة لا محال. فقَبْل هذا الاتّهام القويّ كانت المسألةُ برمّتها لا تعني لي سوى زوبعة مفتعلة من حقّ الصحف أن تجد فيها فرصةً لزيادة التوزيع. بل إنّ استدعاء المحقّق لي اعتبرتُه نوعًا من التقدير المبالَغ فيه؛ فها أنا الذي أرتجف أمام أيّ ضابط صغير أتلقّى من المحقِّق المهيب دعوةً جليلةً للتفضُّل بالمثول أمامه. ورحتُ أتيه على زوجتي ـ التي لا تجد ما يدعو إلى الفخر في مسيرتي الأدبيّة ـ وأحاول أن أُفْهمها أنّ المحقّق لا يستدعي سوى كبار الناس... الكبار جدّاً في هذا البلد. وعندما ابتسمتْ بلؤم واضح، وجدتُني مضطرّاً إلى أن أقول: «بمن فيهم اللصوصُ طبعًا!»

بعد توجيه الاتّهام لي مباشرةً، قال المحقّق: «وأَمَرْنا بالقبض عليه.» فارتبكتُ، والأدقُّ أنّني فَقدتُ الوعي. ويبدو أنّه أَشْفق عليَّ، فقال بأدبٍ جمّ: «حضرتك، انتظرْني خارج الغرفة لو سمحت.» لكنّي اعتبرتُ مبالغتَه في الأدب هي الطريقةَ التي يعامَلُ بها المساجينُ حسب مكانتهم المرتبطة بمدة الحكم؛ فكلما كانت المدّةُ طويلة توجَّبت المبالغةُ في احترام السجين وتبجيله. وإلاّ فما الداعي إلى تلبية طلبات المحكوم عليهم بالإعدام قبل تنفيذ الحُكْم فيهم؟

هذا، إذن، لأنّني مديرُ تحرير سلسلة «آفاق الكتابة» التابعة لهيئة قصور الثقافة، ولأنّنا قرَّرنا نَشْرَ رواية حيدر حيدر **وليمة لأعشاب البحر** فأثارت علينا الدنيا. قلتُ لنفسي وأنا أخرج من الغرفة: «حيدر كاتب طيّب.. هو يَكْتب وأنا أُسجن.» كنتُ أحبّ أن تكون المسألة بالعكس، لكنْ ما باليد حيلة.

في غرفة التحقيق

خرجتُ وجلستُ على دكّة صغيرة أمام غرفة مكتب المحقِّق مباشرةً. وفهمتُ أنّ الدكة مُعدَّة لأمثالي لكي يتأمّلوا ذنوبَهم ويَنْدموا عليها ويبدأوا في قبول وضعهم الجديد كمساجين. ورحتُ أَحْسب المدةَ التي يمكن أن أطيقها في السجن. سنة؟ سنة بالضبط هو ما أستطيع تحمُّلَه. وكأنني أنتمي بجدارة إلى الطيِّبين من الناس الذي يجدون دائمًا في خيباتهم شيئًا ما مبهجًا، فقد وجدتُ في سنة السجن المقبلة فرصةً لإكمال الرواية التي تراوغني منذ ثلاث سنوات. وقبل أن أتأقلم مع فكرة السنة التي اعتبرتُها عقابًا هيّنًا على ما اقترَفَتْه يداي، لاحظتُ أنّ أمامي مباشرةً ضابطًا يقف في كامل عتاده، يُلْقي بأوامره على جنديّ يبدو أنّه صعيديّ. واستنتجتُ أنّ وجود الاثنين في تلك اللحظة بالذات يؤكّد أنّ الإجراءات قد بدأتْ لنقلي إلى السجن اللائق بمكانتي أو بجريمتي. غير أنّ تباطؤهما في التنفيذ جعلني أتفاءل قليلاً، وحَمَلَني على الظنّ أنّ المسألة ليست بهذه السهولة أو على الأقلّ ليست بهذه السرعة إنْ كانت سهلة !

ولكي أتأكّد من ظنوني المفرحة قلتُ أختبر الجنديَّ الذي انتصب أمامي بعد انصراف الضابط. نظرتُ في عينيه نظرةً حاولتُ قَدْرَ الإمكان أن تكون عميقة ومؤثّرة وتليق بشخصٍ استطاع أن يثير برواية لشخص آخر كلَّ هذه الضجة! وهَمَمْتُ بالوقوف. وقبل أن أعتدل باغتني الجنديّ: «اقعدْ مكانَك.» فارتميتُ، أو قُلِ انهرتُ، على الدكّة في شبه إغماءة، وهمستُ لنفسي: «سامحك الله يا عمّ حيدر!»

المجرم الهارب

لكنّ هذه المسألة انتهت كما هو معروف بحفظ القضيّة، وبمزيد من الشهرة لحيدر حيدر وروايته ـ أو قُلْ منشوره السياسيّ الذي استحقّ ما ناله من إهمال طويل سابق. لكنّي من يومها اعتبرتُ نفسي مجرمًا، وهاربًا، يَتَوقّع في كلّ لحظة أن يتمّ القبضُ عليه في كمينٍ ما. ولحسن الحظ أو لسوئه، فإنّ الكمائن في مثل حالتي معروفة، وهي لا تعدو أن أكتب شيئًا أو أن أنشرَ عملاً فيمسكوا بي. من يومها، إذن، صرتُ أتفادى الكمائن. وكلُّ قصة أكتبها أعيد النظرَ فيها مراتٍ ومراتٍ. ونظرًا إلى كثرة المحظورات، ومع افتقاري إلى الفراسةِ التي تحدِّد أيَّ المحظورات قد يَبْرز مع أيّ سطر، فقد استعنتُ بمستشارٍ قانونيّ، وهو محامٍ شابّ يَسْكن أمامي مباشرةً. كلّ قصة أعتزم نشرَها تمرّ عليه، حتمًا. وأيُّ كتاب أكون مسؤولاً عن نشره بشكلٍ ما ـ خصوصًا لو كان لكاتب ساذجٍ أو مناضلٍ مثل حيدر ـ لا بدَّ أن يقرأه جاري ومستشاري.

قرّرنا نشرَ رواية حيدر، ومن يومها أعيد النظر في كلّ قصة أكتبها!

ذلك لأنّ مأساتي تبدأ مع دخول أيّ كتاب إلى المطبعة: ففي الكتاب واحدةٌ تَجْلس مع واحد، وفي الكتاب شخص يفكّر، وفي الكتاب واحدٌ يأكل بنهم؛ فما المقصود بنهمه هذا؟ ولماذا؟ مشكلة الكتب أنّ بها بشرًا، فإنْ وُجِدَ البشر وُجِدَت الخطيئة. وأحلم وأهلوس في الليل وأكلِّم نفسي وأغيب في الكوابيس. وذات يوم ضبطتني زوجتي في الرابعة صباحًا وأنا أقف عند باب الشقّة متأهبًا للخروج، لأنّني تخيّلتُ ـ ولم أكن واثقًا ـ أنّ هناك مشهدًا إباحيّاً في كتابٍ ما، وأردتُ أن ألْحق بالمطبعة قبل بزوغ الفجر لأُوقف طبعه!

صراع الأشقّاء

ويبدو أنّني مضطرٌّ إلى الاكتفاء بهذا القدر من توابع مشاركتي في نشر **وليمة لأعشاب البحر** لأنّ هذه التوابع تبدو هيّنة أمام فداحة المشكلة الأعمق: فالمساكين من أمثالي غالبًا ما يَقَعون ضحيّةً لصراع الأشقّاء: أولئك الذين يَكْتبون أعمالاً روائيّةً قابلةً للاتّهام بخدش الحياء العامّ وازدراء الأديان، وأولئك الذين يهاجِمُون مَنْ كتبوا تلك الأعمالَ. وأقول إنّ الفريقيْن هم من الأشقّاء، لأنّهم في واقع الأمر يقفون جميعًا على أرضيّة واحدة من التقاليد والمحافظة. وفي اعتقادي أنّ حيدر حيدر مثلاً روائيٌّ محافظٌ بطبعه، ولكنّه عندما يَكْتب يتعمّد المساسَ بما يُؤْمن به، ويَشْعر ـ بل ويتباهى ـ بأنّه جريء، ومتمرّد، وأنّه يحطّم التابوهات، أو الطابوهات إنْ شئتَ. والتمرّد لديه غايةٌ في حدّ ذاته، لا وسيلةٌ لإنتاج أفكار أو قناعات جديدة. وهو، كأيّ شخص محافظ، يَشْعر بالفخر لو تمرّد قليلاً على ما يَعْتقد هو نفسُه أنّه ثوابت. ولذلك فإنّ كتاباته أو تمرُّداته لا بدّ أن تَسْتفزّ أو تَصْدم شقيقَه الآخرَ المحافظَ.

هذا إذا افترضنا حُسْنَ النوايا في الشقيقيْن. فالأول (الكاتب) يَفْتعل التمرُّد، ويَفْرضه على نفسه الأصيلة المحافظة. وأمّا المتمرّدُ الحقيقيُّ فلا يَشْعر مطلقًا أنّه متمرّد، ويتعامل مع تمرده باعتباره شيئًا عاديّاً؛ ولذلك فإنّه في الأغلب الأعمّ لا يَصْدم أحدًا، حتى لو خاض في أعزّ معتقدات الناس وأَرْسَخِها.

استكانة المثقفين

وبعيدًا عن حيدر حيدر الذي وَجَدَ في الضجّة التي أثارتها روايتُه فرصةً لالتقاط الصور، ولم يتعفَّفْ عن استجداء القضاء المصريّ في أزمةٍ لا تمتّ إليه شخصيّاً بصلة، فإنّ الجانب الأخطر في مثل هذه القضايا هو استكانةُ المثقفين ـ وفي مقدِّمتهم المتمرِّدون الأُصَلاء ـ وسعيُهم إلى إمساك العصا من منتصفها، وعدمُ صبرهم على تبعات صدامٍ حاسمٍ يُنهي الموضوعَ إلى الأبد.

فطه حسين مثلاً قدَّم تقريبًا اعتذارًا عن كتابه **الشعر الجاهليّ** وقام بتعديله. وبعد خمسين عامًا نجد أنّ نجيب محفوظ يعتذر عن رواية **أولاد حارتنا**. وبعد كلّ هذه السنوات نجد أنفسنا مضطرِّين للدفاع عن **الوليمة** باعتبارها روايةً تدافع عن الإسلام ! والأرجح أنّنا بعد مئة عام أخرى سنجد أنفسَنا منهمكين في الدفاع عن عمل آخر، سواء أكان مفتعلاً أم صادقًا، وسندافع عنه بمنطق مهاجميه نفسه، وسنقول لهم بالصوت العالي: «إنّنا نحن الأصوليُّون العتاة. ونحن الذين نُؤْمن بالثواب، ونحن المخْلِصون الحقيقيُّون.»

وهذا هو الطريق لتجديد الكارثة مرةً بعد أخرى.

حمدي أبو خليل

مدير تحرير سلسلة «آفاق الكتابة» التي قرّرتْ نشرَ **وليمة لأعشاب البحر** لحيدر حيدر في مصر فثارت ضجّة ومظاهرات. روائيٌّ لَفَتَ الأنظار إليه بروايةِ **لصوص متقاعدون**